منوعات

بعد ساعات من عملية طوفان الأقصى صبيحة السابع من أكتوبر 2023، روجت إسرائيل روايات كاذبة لتبرير عدوانها المتواصل حتى اليوم على قطاع غزة. من أبرز الأكاذيب كانت قصة قطع رؤوس الأطفال، واستخدام العنف الجنسي ضد الإسرائيليات. كما حاول الاحتلال تبرير قصف المستشفيات بزعمه أن حماس تخزن أسلحة فيها

7 أكتوبر
السردية الكاذبة

غداة المجزرة التي ارتكبها الاحتلال في المستشفى المعمداني، اكتوبر 2023 (محمود الهمص/ فرانس برس)

الدوحة ـ **ليال حداد**

«لم أعتقد يوماً أني سأرى وأحصل على صور مؤكدة لإرهابيين يقطعون رؤوس الأطفال» ـ الرئيس الأميركي جو بايدن، 11 أكتوبر/ تشرين الأول 2023.

«بايدن وإدارته لم يطّلعا بأم العين على صور (لأطفال مقطوعي الرأس)، بل بنى بايدن تعليقه على تصريحات لمسؤولين إسرائيليين وعلى تقارير إعلامية» ـ مسؤول أميركي في مجلس الأمن القومي، 12 أكتوبر 2023. تصريح بايدن، ثمّ نفيه، يختصران عاماً كاملاً من الضخ الإسرائيلي والأميركي ـ الغربي للمعلومات المضللة حول عملية طوفان الأقصى التي نفّذتها كتائب الشهيد عز الدين القسام، الجناح العسكري لحركة حماس، صباح السابع من أكتوبر 2023، في مستوطنات غلاف غزة، وأسفرت بحسب الأرقام الإسرائيلية عن قتل قرابة 1100 إسرائيلي. لم يكن الاحتلال لينجح في مواصلة عدوانه طيلة هذا العام لولا عوامل كثيرة، بينها أولاً الغطاء الغربي والسلاح المتدفّق لجيشه، وثانياً غطاء من نوع آخر، إعلامي هذه المرة، بعدما وجدت كل أكاذيب الاحتلال طريقها إلى الصفحات الأولى ونشرات الأخبار في كبرى المؤسسات الإعلامية الغربية، تلك التي يتابعها ويقرأها عشرات ملايين الأشخاص.

ثلاث أكاذيب برزت في الأيام الأولى لحرب الإبادة، ولعبت دورها في نزع الإنسانية عن الفلسطينيين تمهيداً لإبادتهم، فتلقفتها وسائل الإعلام وروجّت لها على اعتبارها حقائق غير قابلة للنقاش.

يوم السابع من أكتوبر

بعد دخول مقاتلي حركة حماس مستوطنات غلاف غزة، بدأت سريعاً الفيديوهات والصور بالانتشار في وسائل الإعلام وعلى مواقع التواصل الاجتماعي: لقطات لأسر إسرائيليين، وأخرى لقتلى في المستوطنات... وبعد ساعات من العملية بدأ ضخّ رواية موحدة حول جرائم عنف جنسي ارتكبها مقاومو القسّام ضد نساء إسرائيليات. وبالتوازي مع الرواية، انتشرت فيديوهات لإسرائيليات أسرتهن المقاومة، فقيل سريعاً إنهن ضحايا عنف جنسي. توسّع هذا الخطاب، وتبنّته مؤسسات إعلامية غربية، ومؤسسات حقوقية، ونسويات غربيات وعربيات رافضات للعنف الجنسي في الحروب.

ما الذي حصل بعدها؟ تدريجياً بدأ يتبيّن زيف الرواية الإسرائيلية، فبعد عام كامل من عملية طوفان الأقصى، لم ينجح الجانب الإسرائيلي في تقديم شهادة واحدة موثّقة عن تعرّض إسرائيليات لجرائم اغتصاب. حتى عندما انضمّت مؤسسات إعلامية كبرى، مثل صحيفة نيويورك تايمز الأميركية، للترويج للرواية الإسرائيلية عبر تحقيق مطوّل، ادعت فيه تفنيد جرائم العنف الجنسي في ذلك اليوم، تبيّن أن الشهادات التي وردت فيه غير موثّقة، وأن الأدلة الجنائية والطب الشرعي الإسرائيلي فشل في إثبات هذه الادعاءات، ما اضطر الصحيفة لاحقاً إلى الاستغناء عن تعاونها مع واحدة من الصحافيات المشاركات في التحقيق، هي أنات شوارتز، بعدما ظهر تاريخها بالتعاطف مع الاحتلال والتحريض على قتل الفلسطينيين. لقصة العنف الجنسي في السابع من أكتوبر تشعّبات كثيرة... بدأت في ذلك اليوم، وتوسّعت طيلة الأشهر الماضية. وعند كل محاولة للترويج لهذه الادعاءات، تبيّن الافتقار التام إلى الأدلة. حتى عند الإفراج عن أسيرات كنّ معتقلات في غزة، كرّرن جميعاً أنهنّ تلقينَ معاملة حسنة وأنهنّ لم يتعرّضن لأي شكل من أشكال الإساءة. استغلال الاحتلال أجساد النساء سلاحاً في بناء سرديّته المتخيلة عن السابع من أكتوبر لم يكن مستغرباً. فطيلة هذا العام، كرّر جنود الاحتلال اللجوء إلى الإيحاءات الجنسية، من خلال نشر صورهم وهم يرتدون ملابس داخلية لنساء فلسطينيات، بعد احتلال منازلهنّ. هذه التجليات الإسرائيلية المضطربة، لربط العنف الجنسي بالإبادة، حوّلت ادعاءات الاغتصاب في السابع من أكتوبر إلى مجرّد اتهامات عشوائية في الهواء، بلا أي قيمة حقيقية على الأرض.

> **استغل الاحتلال أجساد النساء سلاحاً في بناء سرديّته المتخيلة**
>
> **استحضار رمزيات الهولوكوست لبناء رواية السابع من أكتوبر**

أطفال بلا رؤوس... أطفال في الأفران

قبل يومَين، أغرقت مواقع التواصل الاجتماعي صور أطفال فلسطينيين بلا رؤوس، بعد المجزرة التي ارتكبها الاحتلال في شمالي غزة، قبل يومَين فقط، في اليوم 366 للعدوان على قطاع غزة. يصعب عدّ المرات التي رأينا فيها صور أطفال غزيين مقطوعي الرؤوس، عشر مرات؟ 15 مرة؟ 100 ربّما؟ لم يجد أي من هؤلاء الأطفال الشهداء طريقهم إلى الإعلام الغربي إلا في ما ندر. لم ينهَر العالم لرؤيته أطفال غزة بلا رؤوسهم، لكن يومَي السابع والثامن من أكتوبر 2023 تصدّرت أغلفة الصحف قصّة متخيّلة عن قطع مقاتلي حماس رؤوس أربعين طفلاً إسرائيلياً خلال عملية طوفان الأقصى. لم يرَ أحد هؤلاء الأطفال، لم نسمع شهادة واحدة من أهاليهم، وتكرّرت تكذيبات المصادر الإسرائيلية نفسها لهذه الواقعة المتخيّلة، ورغم ذلك تبنّاها الإعلام الغربي والإعلام الإسرائيلي. لنأخذ على سبيل المثال صحيفة بحجم «ذي إندبندنت» البريطانية، التي خصصت غلافها يوم 11 أكتوبر 2023 للعنوان التالي «لقد قطعوا رؤوس النساء والأطفال، رأينا أطفالاً موتى، يقول مصدر إسرائيلي».

شكّلت عشرات المؤسسات الإعلامية غطاءً لتصعيد العدوان على غزة، ولقتل المدنيين، من خلال تبني رواية قطع رؤوس الأطفال، مشجّعة جيش الاحتلال على التخلّص من «الإرهابيين والبرابرة»، أي الفلسطينيين في هذه الحالة. وبعد نشر جهات إسرائيلية ومنظمات حقوقية، وجمعيات أهلية أسعفت المستوطنين يوم عملية طوفان الأقصى، نفياً لقطع رؤوس الأطفال، اختفى الخبر تدريجياً، من دون أن تعتذر أي مؤسسة إعلامية عن نشره، ومن دون أن تتحمّل مسؤوليتها في التحريض وتأمين غطاء للإبادة.

لكن هل توقّف تدفّق الأخبار المضللة بعد تكذيب الخبر أعلاه؟ طبعاً لا. فشلت رواية الأطفال مقطوعي الرأس، فظهرت رواية الأطفال الذين وضعوا في الأفران أحياء. استحضار رمزيات الهولوكوست شكّل جزءاً أساسياً من بناء سردية السابع من أكتوبر، ولم يكن اختلاق رواية قتل أطفال بوضعهم أحياء في أفران إلا جزءاً من هذه الرمزية. لم تصمد الرواية طويلاً بعدما تبيّن أن الصور المنشورة للأطفال المقتولين مصنوعة ببرمجيات الذكاء الاصطناعي، لكنّها بقيت حاضرة لأسابيع بعد السابع من أكتوبر، خلال النقاشات التلفزيونية في برامج التوك شو الإسرائيلية والفرنسية والأميركية بشكل خاص.

المستشفيات والأطباء والروزنامة

لم يتأخّر الاحتلال في بناء رواية خاصة حول المستشفيات في قطاع غزة لتبرير قصفها وقتل الأطباء والممرضين والمسعفين، ولم يجد الجيش الإسرائيلي أي رادع منذ قصفه المستشفى المعمداني بكل من فيه يوم 17 أكتوبر 2023.

لكن كيف برّر الاحتلال قصف كل مستشفيات القطاع وإخراجها عن الخدمة بشكل متكرّر؟ وكيف برّر قتل أثر من 990 شخص من العاملين في القطاع الصحي؟ وكيف برّر اعتقال أكثر من 300 عامل صحي؟ وكيف برّر توقّف 130 سيارة إسعاف عن العمل؟ بالكذب طبعاً. ادعى الاحتلال بعد ساعات من بدء عدوانه على القطاع أن حركة حماس تستخدم أقبية المستشفيات لتخزين الأسلحة، وأنها بنت أنفاقاً تحت معظم المؤسسات الطبية. وكدليل على ادعاءاتها استدعت فريقاً صحافياً (من ضمنه فريق شبكة CNN الأميركية)، لإثبات كل ما سبق. فكان الدليل روزنامة تقسيم الدوامات على حائط في مستشفى الرنتيسي للأطفال، ادعى الاحتلال أنها روزنامة عمل مقاتلي حماس لمراقبة الرهائن المحتجزين في ذلك المكان.

ورغم تكذيب رواية الاحتلال في اليوم نفسه على مواقع التواصل الاجتماعي، نشرت CNN تقريراً تبنّت فيه رواية الاحتلال، من دون أي تدقيق أو مراجعة.

قضية

تنشر «العربي الجديد» ملفاً يحاول إيجاد معادل سينمائي للحاصل في قطاع غزة كما يراه زملاء وزميلات يُشاركون بمناسبة مرور عامٍ على الإبادة

السينما وقطاع غزة

من يُعيد خلق كلّ هذه الآلام؟

أمل الجمل

عرف التاريخ جرائم شنيعة. تلوّثت أيادي ملايين البشر بالعنصرية والفاشية، وبدمائهما. حروبٌ أهلية، وأخرى عالمية. قنابل ذرّية ومفاعلات نووية شَوّهت مُدناً وناسها الأبرياء. أوبئة مُصنّعة، وأخرى طبيعية، قتلت عشرات الملايين. ثورات دموية من أجل الاستقلال. حركات وطنية قُمِعَت بصنوف من التعذيب والترهيب لا تخطر على قلب بشريّ وعقله. أشكال إبادة، وأفعال جُرميّة مُروّعة في أنحاء مختلفة من العالم. ثم تحصل جريمة إسرائيل في لحظات حرجة من عمر الكون، مُمَارسةً إبادة جماعية مُمنهجة ضد الشعب الفلسطيني في قطاع غزّة، منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، فتُضيف فصلاً فاجعاً.

رغم فظاعة تلك الجرائم وهولها، ظلّت السينما، أحياناً غير قليلة وإنْ في فترات متباعدة، قادرة على تسجيل موقف إنساني خالد. أعادت خلق الألم غير المُحتَمل.

وأيضاً، أعادت ما حدث في الواقع بشاعرية أحياناً، وبعنف دموي يكاد يُضاهي قسوة الواقع أحياناً أخرى. لا تزال تلك الأفلام حيَّةً في الذاكرة الإنسانية.

لم يكن سبب خلود الكاميرا أنّها رصدت/ وثّقت خراباً ودماراً حاصلَين فعلياً. فبعضها روائي أُنجز بعد قرن، أو وثائقي نَبَش وحَفَر في ذاكرة الصُور والحجارة قبل الوثائق. إنّه إبداعٌ خلّاق، يُصوّر بيئة مُشبعة بدفء الوجع بين حالات إنسانية مغدورة. باقترابه المكثّف والمُركّز من أعماق البشر، ومن قصص حياتهم، مانحاً المتلقّي فرصة ليرى ويحسّ، والمشاعر تنطق بها وجوه وعيون. ومواقف بصرية أساساً، تكشف أشياء حطّمتهم. ربما ظلّت خالدة، لأنّ أصحابها يحكون بجاذبية ساحرة وآسرة، يتورّط متلقّوها (الحكاية) في عوالمهم وحيواتهم وآمالهم وعذاباتهم وكفاحهم.

هذا وحده كافٍ ليحيك لغته السينمائية بمهارة وصدق، ويتجرّد من المبالغات، وبمخاطبة العقل من دون أنْ تخلو المخاطبة من عاطفة. ليس ضرورياً أنْ نشعر فجأة بأنّ تخريب حياة هؤلاء الأبطال، الذي يُحتمل أن يكونوا بسطاء وعاديين وهامشيين، جزءٌ من تخريب الكون الذي نعيش فيه. يكفي أنْ نندمج معهم، فنتصوّر أنفسنا لاشعورياً في وضعيّتهم نفسها.

> يبدو أن هناك كسلاً سينمائياً وميلاً إلى الرفاهية

هل استطاعت السينما أنْ تكون مرآة لما حدث لشعب غزّة في عام؟ لا. لا يوجد إلى الآن فيلمٌ يُعبّر عن فداحة الحرب القذرة. آلاف الأطفال الأبرياء قُتلوا عمداً (40% من نحو 42 ألف شهيدٍ). قُتلِت عائلات بأكملها، إضافة إلى نحو 96 ألف جريح (استخدام أسلحة مُحرَّمة دولياً)، بحسب شهادات دولية تقول إنّ الأسلحة المُستخدَمة، المضمّنة قنابل فوسفورية وغاز الأعصاب واليورانيوم ومواد مُشعّة، قتلتهم وشوّهتهم، بينما القنابل التي تخترق الحصون لم تكتفِ بضرب الأنفاق، إذْ دمّرت عمداً المستشفيات قاتلة مرضاها. عشرات الصحافيين اغتيلوا، وآخرون أُسِروا أو قُتلوا عقب الإفراج عنهم. الطلاب حوصروا في مدارسهم، والمُدرّسون ضُربوا واعتُقلوا، والباقون يُقيمون تحت تهديدٍ مُروّع، خشية «القنابل الغبية».

صُور الدمار والمذابح تقشعر لها الأبدان. فهل ما سبق لا يُحفّز المخيّلة الإبداعية، ولا يُحرّك ضمير أي صانع سينما؟ أمْ إنّ هول الفاجعة يصنع حالةً من العجز عن التعبير الفني؟ أيحتاج المبدع إلى وقتٍ لينفصل عن المأساة؟ أمْ إنّه استسلام لكسلٍ وركون إلى منطقة الراحة، بحجّة عدم وجود تمويل؟

يقيني أنّ ضيق الوقت وضعف التمويل ليسا السبب، فهناك قنوات تلفزيونية تدفع جيداً لصناعة أفلام، كلّها إخبارية. كما أنّ عدم وجود مؤسّسات حكومية تدعم الإنتاج ليس مُبرّراً، ففي مصر، وعن حرب الاستنزاف (1 يوليو/تموز 1967 . 7 أغسطس/آب 1970)، أُنجز أحد أجمل الأفلام، «أغنية على الممرّ» (1972) لعلي عبد الخالق (عن مسرحية بالعنوان نفسه لعلي سالم)، بجهود سينمائيين مصريين (إنتاج «جماعة السينما الجديدة»). صحيحُ أنّ «المؤسّسة المصرية العامة للسينما» دعمته. لكن، لولا اتّحاد الممثلين وبعض النقاد وشراكتهم في الإنتاج، ولولا حماسة عبد الخالق، لم يكن للفيلم أنْ يتحقّق. هذه أول تجربة له، فبحث عن فنانين لهم الحماسة والرغبة في التعبير عن الاشتياق إلى خوض معركة تُعوِّض شعور الهزيمة.

الآن، هل ينقصنا سينمائيون، ذوو مهارة وخبرة؟ طبعاً لا. هناك إيليا سليمان وهاني أبو أسعد وصالح ومحمد بكري وهيام عباس وآخرون. ماذا ينتظرون؟ ألم تُحرّكهم هذه الوحشية الإسرائيلية؟ ألم تراودهم أفكار قصص واقعية، لدعم أهالي غزّة، وتحريك المجتمع الدولي؟

التمويل ليس عائقاً. التكنولوجيا الحديثة صنعت ثورة في صناعة السينما. في المقابل، هناك كسل سينمائي، وميل إلى الرفاهية. إذاً، المُتاح الآن للمبدعين لم يكن متاحاً للسينمائيين الذين عاشوا حرب الاستنزاف، أو صنعوا أفلاماً عن الإبادة في جنوب أفريقيا أو في أيرلندا.

«قائمة شندلر» (1993) لستيفن سبيلبرغ لم يبقَ في الذاكرة بسبب خدع أو طفرة تكنولوجية، بل بسبب قصصه وتفاصيله بالغة الإنسانية والوحشية. لذا، على السينمائيين ألا يظلّوا رهينة صناديق الدعم والمؤسّسات التمويلية. هناك أفلامٌ أُنتجت بفضل مساهمات قرّاء وجمهور «أون لاين». هذا حدث مع أفلامٍ عن مهاجرين غير شرعيين، وأعتقد أنّ الاستعانة بهذه الطريقة لإنجاز أفلامٍ عن غزّة سيفتح باب التمويل بقوّة جبّارة.

تساؤل آخر: لماذا لا نستفيد من نجوم/ نجمات هوليوود، الذين تضامنوا مع غزّة، ونددوا في تصريحات مقروءة أو مُصوّرة بحرب الإبادة الجماعية التي تقوم بها إسرائيل: سبيلبرغ، وأنجلينا جولي، وخافيير بارديم، وبينيلوبي كروز.

في خانيونس، 2 اكتوبر 2024 (هاني الشاعر/ الاناضول)

هل يكفي؟

ماذا يعني أنْ تتضامن مع شعب يُذبح من دون أنْ تُتاح له فرصة أنْ يسمع العالم صوته؟ إذا كان ممثلو هوليوود يشعرون بالغضب والاستياء إزاء حرب الإبادة، ومعاقبة ملايين المدنيين الفلسطينيين، وإزاء صلف الاحتلال برفض وقف إطلاق النار؛ وإزاء تواطؤ زعماء العالم في هذه الجرائم؛ هل يكفي أنْ يقف كلّ واحد منهم متأنّقاً بأرقى الثياب وأغلاها أمام الكاميرات ليقول إنّ الهجمات على غزّة «فظيعة وغير إنسانية»؟

إضاءة

مدينةٌ عصيّةٌ على الموت

قيس قاسم

«قد يتحطّم الإنسان، لكنّه لا يُهزم». قول الكاتب والروائي الأميركي إرنست همنغواي هذا يصحّ كثيراً على مدينة غزّة. مدينة تتعرّض مرّات ومرّات إلى هجمات بربرية، يتحطّم الكثير منها ويُدمَّر، لكنّها لا تُهزَم. تنهض وتعاود الحياة، كما في الملاحم والأساطير. مدينةٌ عصيّةٌ على الموت. تعانده من أجل البقاء.

مثل هذه المدينة تستحقّ فيلماً ملحمياً عنها. تاريخ السينما حافل بأفلام عن مدنٍ تُشبهها، صمدت في وجه البرابرة والغزاة، فاستحقّت أنْ يُؤرّخ صمودها سينمائياً. عادة، تتأتّى النصوص السينمائية المكتوبة عنها من وحي سرديّاتها البطولية، وسرديّات القضية الفلسطينية فيها ما يكفي لصنع أكثر من فيلم تاريخيّ. ملحميّ عنها، وعن بطولات مُدنها المُصرّة على الحياة رغم الموت والدمار، كغزّة.

هل يمكن تحقيق ذلك عملياً؟ يُمكن الإجابة بنعم. لأنّ السينما اليوم لم تعد محصورة على جهات إنتاجية متنفّذة، يصعب منافستها كما قبل عقود. العالم لم يعد غافلاً عمّا يجري في بُقع صغيرة منه. بات يعرف الكثير عنها. يُلاحق تطوّراتها ويوثّقها، وينجز أفلاماً روائية عنها.

بمراجعة المنجز السينمائي المعنيّ بغزّة، نجد هذا الهاجس حاضراً فيها، ومنه ما يكفي لأنْ يكون مرجعاً لعمل ملحميّ لاحق. تكفي مُشاهدة الفيلم القصير «ما بعد» (2024) للمخرجة الفلسطينية مها حاج، لإدراك أيّ عمق فيه، وأيّ مهارة كتابية تُكثّف وجع المدينة وناسها بأسلوب سينمائي باهر ومُلهم لراغب في كتابة أوسع عن خسارات أهل غزّة وآلامهم، التي يخفّفونها بقصص من خيالهم، تُحيل الفَقْد إلى حضور وعيش. وثائقيات أجنبية وعربية وفلسطينية عن غزّة يُمكنها أنْ تكون مرجعاً لمشروع سينمائي ملحمي طموح.

هناك مُتغيّر تاريخي هائل في أهميته، عنوانه «نهاية عصر كتابة التاريخ بقلم المنتصر». يُدرك من يُشاهد مُنجز فينيسا بولز، «منطقة القتل.. من داخل غزّة» (2024) أن لا أحد اليوم يستطيع إغلاق أعين العالم عن رؤية الحقيقة. حصيلته المخيفة من تسجيلات صحافيّين فلسطينيّين من غزّة، صوّروا ونقلوا إلى العالم مقاطع حيّة، تُظهر همجية الجيش الإسرائيلي، وهذا كافٍ للتأسيس عليه سينمائياً، وكتابة نصوص ملحمية عن مدينة غزّة، التي يُراد في هذه اللحظة إبادة أهلها بالمعنى الدقيق لكلمة «إبادة».

يعرف صُنّاع السينما المهرة كيف يعيدون كتابة الصورة. الوثيقة، مهما بلغت من قسوة، بأنساق سرد مؤثّر، يترفّع عن استجداء عواطف المُشاهد. هذا حاصل في أفلام وثائقية غير قليلة، رصدت القويّ في دواخل الغزّيّين ورغبتهم في عيش حياة سويّة. الذهاب إلى المؤثّر في مشهد المدينة المنكوبة، من دون إسفاف أو بكائية مفرطة، صار السينمائيون يعرفون أهميته، وبينهم عرب وفلسطينيون، لم يخفوا انحيازهم إلى قضية عادلة كالقضية الفلسطينية، لكنّهم أرادوا صُنع أفلام سينمائية «جميلة» عنها.

«باب الشمس» (2004) ليُسري نصر الله، المقتبس من رواية بالعنوان نفسه (1998) للروائي اللبناني الراحل إلياس خوري، يمثّل محاولة جادّة باتجاه كتابة نصّ سينمائيّ ملحمي عن نكبة فلسطين، تُعينه على ذلك كتابة روائية تُدرك وظيفتها الجمالية والفكرية. مشروع نصر الله ينبغي أنْ يكون تأسيساً، يُعبّد طريقاً لمشاريع أفلام أخرى عن فلسطين تتبعه، فيها النفس الملحمي نفسه. هذا لم يحصل للأسف، رغم التوثيق المستمرّ لقصص إنسانية، تكمن فيها روح ملحمية. وفي متون أفلام وثائقية كثيرة، هناك أفكار وخامات يَقدَر السينمائي المعني بقضية إنسانية، كقضية غزّة، أنْ يجد فيها ما يُساعد على إعادة ترتيب الذهن لكتابة إبداعية جديدة.

هذا اتّخذه صنّاع أفلام عالميون، حين شرعوا في تجسيد المحرقة اليهودية، والظلم اللاحق باليهود في الحرب العالمية الثانية. فلسطينيو غزّة اليوم، بعد السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، يتعرّضون إلى محرقة. لا بُدّ من أنْ تدفع سينمائيّين إلى التفكير في تجسيدها في أفلام، لا تقتصر اشتغالاتهم فيها على نقل مشهدها الآنيّ المؤلم، رغم أهمية ذلك.

> هناك وثائقيات يُمكنها أنْ تكون مرجعاً لمشروع سينمائي طموح

في رفح، 15 سبتمبر 2024 (إياد بابا/ فرانس برس)

من قصف الاحتلال على مخيم النصيرات (الاناضول)

مشهد

كاميرا بعين مليئة بالخوف

علاء المفرجي

امرأةٌ تبرز بين الجموع. خلفية الصورة أنقاض بناية تنهار، بفعل صاروخ قبل دقائق. المرأة تولول. تصرخ باحثة عن طفليها. المتلقّي يعرف أنّها من سكّان البناية المتهاوية، لكنّها كانت خارجها من أجل التسوّق، بعد أن استودعت طفليها فيها. بمن كانت تستغيث إذاً، ليأتي بطفليها، والجموع نالهم ما نالها؟

طفلٌ يبكي وهو يمشي مع هذه الجموع المُعذّبة، من دون عائلته. شيخٌ يُدفَع بعربةٍ مُهترئة، تحمل أشياء لم ينلها الدمار، قاصداً الأمان. هل هناك مكان آمن في غزّة اليوم؟

صُور أناسٍ اختلطت بصُور الدماء التي نالت كلّ شيء. عجوزٌ سبعينية تقول: «منذ ولادتي، لم نَسلَمْ من هذه الحروب». آخر يقول: «أين العالم؟ ألم يَندَ جبينه؟». صُور كهذه، وغيرها، تلتقطها كاميرا مُخرج يرغب في توثيق صورة شعب يعاني ويُقتَل. شعب لا ذنب له سوى أنّه فلسطيني. أختار صُورا كهذه لفيلمٍ وثائقي، وما أكثر الوثائقيّات التي أرّخت ووثّقت حروب العالم. ما الذي ينتظره بعض مخرجينا ليحملوا كاميراتهم من أجل فلسطين؟ ليرصدوا هول المأساة التي يتعرّض لها الفلسطينيون منذ عام كامل؟ 50 ألف شهيد قُتلوا بين قساوة الطغاة وبراءة شعب. إزاء المأساة التي تعيشها فلسطين الآن، لم نعد بحاجة إلى فيلمٍ وثائقي، محكوم بتقليدية تنفيذه، بل إلى المختلف والمغاير. فيلمٌ يرتقي بفكرته وصناعته إلى مستوى المأساة. يستنطق التفاصيل، ليس البشر وحسب. يُحرّك شعور الانتماء إلى هذه القضية.

تجول الكاميرا بين صُور المأساة. قصفٌ وحشيّ يستهدف كلّ البنى التحتية: أبنية تنهار برمشة عين. مستشفى يُقتَحم. نداءات استغاثة من مواطنين يغذّون السير في طريق، ولا يعرفون أيّ مجهول يقصدون. الكاميرا تنقل صُوراً بلقطة بعيدة بالـ«درون». نزوحٌ جديدٌ لسكّان غزّة، وغالبيتهم أطفال. وكما في الوثائقي «نزوح إلى المجهول»، الذي يروي حكاية نزوح الغزّيين إلى الجنوب، خانيونس ورفح، يستعيد المتلقّي سِفْر النزوح الدائم. كأنّ هذا الشعب خُلق ليرحل. هذه المرّة، نزوح أبدي كما يريده الإسرائيليون، ويعود سكّان غزّة كما حصل منذ أكثر من 70 عاماً، والعيش في الخيام قاسٍ. الأطفال في الوثائقي المُفترض يسردون كلّ شيء. يروي كلّ طفل مُعذَّب حكاية مأساوية. طفل فَقَد كلّ عائلته، باستثناء أخته الصغيرة ذات العامين. آخر مصدوم بما حصل ينظر إلى الكاميرا بعين مليئة بالخوف، ولا يعرف شيئاً سوى أنّه سائر مع آخرين إلى المجهول. آخرٌ يأمل رجوعاً إلى بيته، واستئناف لعبه.

أرى أنّ المحنة لا تُحتَمَل. الوثائقي، بين الأنواع السينمائية كلّها، يؤرّخ المعاناة التي يعيشها شعبٌ مُعذّب. فيلمٌ يستخدم الواقع كمادة خام، ويتولاّها فنان يتحكّم بقصته. ليس مهمّاً أنْ يروي قصة عن واقع الحياة. لكنْ، يكفي أنْ تدور الكاميرا في حجم المأساة، لتروي قصة هذا الشعب الرازح تحت وابل من أدوات الحرب الحديثة. تبقى الإجابات مُعلّقة، والمُشاهِد يصوغ معنى أيّ فيلم بجَمْعه بين معرفةٍ واهتمامٍ بالعالم، وشكلٍ يُصوّر به المخرج هذا العالم. في الوقت نفسه، تنطلق توقّعات المشاهدين بأنّهم لا يشاهدون تزييفاً وكذباً، فالوثائقي ينقل أشياء صادقة عن العالم الواقعي. هنا، لا يحتاج صانع الوثائقي إلى المُراهنة على الصدقية التاريخية، فالتفاصيل متاحة، والوثيقة شأن المؤرّخ لا المبدع، الذي يستطيع أنْ ينحت من الوثيقة مادة إبداعه.

> لا يحتاج صانع الوثائقي إلى المُراهنة على الصدقية التاريخية

رصد

أن تظلّ العيون على غزّة

> قرّرت مهرجانات تخصيص أقسام للسينما الفلسطينية في برامجها، فطرح مبرمجون تساؤلات عمّا إذا كان يُمكن للسينما أنْ تظلّ سلاحاً في مواجهة قمع الأضعف

ندى الأزهري

مرّت سنة. أين نحن مما كتبنا حينها عن دور السينما مما يجري، وما تغيّر؟ آنذاك، أوحى العدوان على غزّة، ومواقف الغرب منه، بفكرة تحقيق فيلم وثائقي يُقدّم آراءً بما يجري. آراء أصدقاءَ غربيين، «المصدومين» منهم خاصة مما حصل في «طوفان الأقصى» الذين توقّفت صدمتهم عند هذا الحدّ، في هذا الحيّز الجغرافي والأخلاقي. كأنّ ما عداه ليس موجوداً، وإن وُجِد فلا يستحق الذكر، وهذا ذنبه.

هكذا، بكل بساطة، برّر من تحلّى بذاكرة اختيارية وعين واحدة تنظر في اتّجاه وحيد، رغم كلّ الضحايا والفظاعات في الطرف الآخر، الفلسطيني. كانت الرغبة كبيرة في توثيق الانحياز والنفاق، والكيل بمكيالين، وغياب النظرة العادلة.

اليوم، بعد سنة، يُطرح السؤال نفسه: كيف يُمكن للسينما أنْ تُبيّن تحوّلات المواقف، وأن تكون مرآة حقائق الواقع؟

هذا الفيلم الوثائقي الذي فكّرت في تحقيقه، من دون أنْ تكون هناك قدرة على إنجازه، يتجسّد أمامي يومياً في نشرات الأخبار الفرنسية، في مواقف وتصريحات باعثة لغيظٍ، بل لثورة لا تهدأ، ولم تهدأ إلى اليوم. مواقف وتصريحات تُبَثّ بإسهاب. آراء هؤلاء المصدومين، صدمة الاتجاه الواحد والأوحد. يُذكر أنّ هناك آخرين، لكنّ هؤلاء تكفيهم كلمة عابرة، أو صورة سريعة. هجرت الشاشة الصغيرة، لحسن الحظّ. اتّبعتِ الشاشةُ الكبيرة منحى آخر. تابعتْ أكثر تطوّر الرأي العام العالمي وتأثّره بالفظائع، وكانت مرآة أكثر عَكْساً للواقع. هل هذا لأنّ قدرة وصولها إلى الجماهير أقلّ، وبالتالي يُسمح لها بقدر من التعبير أكبر من التلفزيون؟

المهمّ أنّه، عبر قوة السينما، هناك دائماً أملٌ في تغيير الأشياء. لدى نجومها ذاك البريق الذي يسمح بمتابعة تصريحاتهم. كانت إداناتهم في هذا العام كثيرة، وإنْ لم يمسّ بعضها صراحة دولة العدوان، وإنْ اقتصر بعض آخر على الدعوة إلى وقف إطلاق النار، من دون الاشارة إلى همجية إسرائيل. المهرجانات السينمائية أيضاً باتت، في دول غربية، محطة ممتازة لإظهار معاناة فلسطينيي غزّة، سواء بأضعف الإيمان، عبر السماح لناشطين بحمل لافتات والصياح بشعارات منددة بالعدوان خلال توزيع جوائز أو في حفلة ختام. أما حين كانت المهرجانات تمنع أي مظهر من مظاهر تضامنية مع الشعب الفلسطيني، ينجح التحايل دائماً في التذكير بأنّ هناك بقعة من هذا العالم يتساقط فيها ضحايا، لا يفطن لهم أصحاب القرار، وكثيراً ما ساهم في هذا التعبير فنانون معروفون.

هذه المهرجانات نفسها، كما غيرها، قرّرت تخصيص أقسام للسينما الفلسطينية في برامجها، فطرح مبرمجون تساؤلات عمّا إذا كان يُمكن للسينما أنْ تظلّ سلاحاً في مواجهة قمع الأضعف ورعب الحرب، وما إذا كان يُمكن لكلّ فيلم أنْ يكون، بطريقة فريدة، مكاناً للقصّة المضادة، وأن يحافظ على روح النضال لدينا، وعلى قدرتنا على التفكير بطريقة مختلفة، وكيف يُمكن أنْ تكون الإيماءة السينمائية في مواجهة العنف شاهداً ودعوة إلى إعادة تشكيل مجال الذاكرة. تغيّرت أمور في عالم السينما، وهذا مثيرٌ للمشاعر. وثّق سينمائيون فلسطينيون ما يحصل في غزّة، واستعيدت أفلام سابقة على العدوان، تتناول فلسطين. في كلّ مرة، كانت قاعات المهرجانات تمتلئ، فهل أدّى كلّ هذا إلى توضيح الصورة؟

في دير البلح، 1 أكتوبر 2024 (أشرف أبو عمرة/ الاناضول)